

ما خفي أعظم ❏ وسنن الله في الأنفس والآفاق



الأربعاء 29 يناير 2025 07:00 م

❏ رمضان خميس أستاذ التفسير وعلوم القرآن في كلية الشريعة جامعة قطر

تهيب كثيرًا، وما زلت أتهدب الكتابة عن هذا الطوفان المبارك الذي أثبت أنه طوفان في كل شيء وعلى كل المستويات، طوفان في تفجير طاقات الإنسان حين يربط نفسه بقوة القدير الذي لا يُفهر، والغالب الذي لا يذل، والعزير الذي لا يغالب. وتهيبني هذا ليس نكوصًا عن واجب العلم الذي أتخصص فيه ولا الأمانة التي أحملها بل ذهولًا من سرعة بيان هذه السنن في واقع الحياة، فما كنت أدرسه وأدرسه لطبتي تأصيلًا رأيته كما رآه غيري في ميدان الحياة تطبيقًا وتنزيلًا، وهو تهيبٌ كذلك للفرق الشاسع والبون الواسع بين ميدان الكلام وميدان العمل، ميدان الكلام الذي نؤصل فيه للناس معاني السنن وميدان العمل الذي أخذ رواده الأشاوس في أرض الميدان في الأرض المباركة، أخذوا بسنن الله تعالى قدر الطاقة البشرية، فأتاهم أكله وحقت لهم نتيجته.

لقد أقام الله تعالى الكون، ظواهر وخلقًا، على سنن حكمة ونواميس ماضية، لا تتخلف ولا تتبدل، وهذه المنظومة من السنن متشابكة متكاملة، لا تتعارض ولا تتعاند، بل يكمل بعضها بعضًا، ويسند أولها آخرها، ويؤكد آخرها أولها في تناغم واتساق.

وقد حفلت أحداث طوفان الأقصى -هذا الحدث الذي هز العالم مادةً وفكرًا وتصورًا ورمزًا- بمجموعة من السنن تتعاضد بصورة عجيبة، كأن الله تعالى طوى الزمان في زمن وجمع العالم في واحد، فرأينا بعين "العلم" ما كنا نراه بعين "الطم"، وشاهدنا مشاهدة عيان بعد مقولات البيان، وانتقلت أماننا "الرؤيا" الحلمية إلى "الرؤية" العلمية، ونطقت الآيات نطق الحال ونطق المقال، وأضحى تنزيلها على الواقع يناهز الكون بأسره: (وَلْيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص: 5).

فرأينا منظومة متشابكة من سنن الله تعالى، رأينا سنن الله في النصر بمفهومه العام الشامل الذي يثبت فيه المجاهد على المبدأ حتى ينال غايته، وقد كان، فلم يأت العدو الغاشم جاثيًا على الركب كما توعد الملمم الشهم الذي تبعث صورته في النفس عزة المسلم ونخوة العربي الأصيل، بل أتى زحفًا منكوس الرأس ورغماً عن إرادته.

رأينا سنن الله في الابتلاء في الأموال والأرواح والدور وفي كل شيء من ممتلكات الحياة، ورأينا نتيجة الابتلاء نسائم النصر وبشائر الفتح حتى ترتدي الأسيرات زيًا أشبه بالنزي العسكري، ويقف الجندي القسمي شامخًا ممتشقًا سلاحه الذي غنمه من عدوه، بل السلاح الذي لا يكون إلا مع النخبة من العسكريين الصهاينة.

رأينا سنن الله في الدفاع بين الحق والباطل، وكيف أن الحق شامخ شموخ الجبال، ثابت ثبوت الرواسي، حتى أعاد روح الجهاد للأمة من أقصاه إلى أقصاه، ورأينا الباطل زاهيًا بل زهويًا، كما أتت السنن الجارية: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُومًا)، زهوميًا صيغة مبالغة في اندحاره واندثاره لو كان قومي يعلمون، زهوق مثل نفوق وهلوك وأكول.

رأينا سنن الله في الحفظ والتأييد، وكيف أن الله تعالى يحفظ جنده وعباده على الرغم من المعجسات الحرارية التي لا يند عنها شاردة ولا واردة، والطائرات المسيّرة التي تحلق فوق رؤوس القوم ليل نهار، تلتقط أي إشارة بل الطير الشارد، ولا تقع على شيء، وكأن غزاة وأهلها صاروا في عداد الفناء، ثم يفاجئنا منظر تسليم الأسيرات ومظهره، وكأن القسمي نحلّ خرج من خليته، وكأن أهل غزاة كتل بشرية بل موج من البشر وسيل يتدفق ولا يتوقف.

رأينا سنن الله في التوفيق والخذلان، رأيناها في صور عديدة من بداية الطوفان وتوقيته وإعداده وآثاره، رأيناها في مشهد الطوفان في بدايته وفي أثنائه، وفي مشاهد عديدة أظهرها "ما خفي أعظم"، رأينا قمة التوفيق في ظهور المغوار يحيى السنوار الذي يتوكأ على عصاه وكأنها عصا موسى يهش بها السحرة لا الغنم، فيبطل السحر الساحر، ويقع الحق ويبطل ما كانوا يفترون، مما كانت تذيعة وتشيعه قنوات عربية مأفونة تحب كل شيء إلا ما فيه عز المسلمين وشهامة الغر الميامين.

رأيناها في البسمة التي تملأ وجه السنوار وهو يتهدى ويترنم ببيت أحمد شوقي الرائع الذائع الماتع:
وللحرية الحمراء باثٌ *** بكلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
وكانه يعتمد هذا الاختيار ليربط بين شوقي ابن النيل وحسن الخراط ابن الشام، وبين نفسه هو ابن الأرض المباركة؛ حتى يترك رسالة للأجيال أن عز الأمة في وحدتها، وأن قوتها في ارتباطها بدينها ومبادئها.

رأينا سنن الله في المكر والماكرين، فكم حيكك ألعيب ودسائس من بني جنسنا وأبناء جلدتنا لابتلاع هذا القطاع ابتلاءً لا رجعة بعده؛ حتى يتكلموا عن اليوم التالي للحرب، وقد بهرهم ما بثته الجزيرة من صور الحاضنة الشعبية الملتفة حول مجاهديها التفاف الأعصاب حول الجذور والجدوع، أرثهم صورة اليوم التالي وحده بين الحاضنة الشعبية والمجاهدين بصورة فوق ترتيب البشر بل هي المدد الإلهي الخالص. رأينا سنن الله في الخائنين، الذين انكشف عارهم وبان عوارهم في تعاملهم في مخيم جنين حتى كانوا سنداً وعضداً للمحتل الغاشم على أبناء دينهم وجنسهم.

بل كشفت حجم الخيانة على مستوى بلدان وحدود كثيرة، إذ رأوا الفلسطينيين الأعزل يأكل أوراق الشجر ولا يجروون على إمداده بما يقيم صلبه، نازلين عن مستوى الجاهلية الجاهلة التي أبت أن تشعب والمظلومون في شعب أبي طالب محرومون.

رأينا سنن الله تعالى في الكافرين، وأنهم ملة واحدة كما أخبرتنا سنن الله تعالى الجارية: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مَفْسَادٌ كَبِيرٌ) (الأنفال: 73).

رأينا سنن الله تعالى في توهين كيد الكافرين، وتحققنا (مَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسِيئًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) (الأنفال: 17-18)، وكيف أن العالم الكافر أجمع تجمّع على هذه الفئة المجاهدة، فذابت الحدود وعبرت البواخر تمخر عباب البحار والطائرات تسير عبر الصحاري والقفار، لا تحترم حدوداً ولا فواصل مع أنهم ليسوا أمة واحدة بل منازع شتى حتى:

تَفَرَّقَ شَمَلُهُمْ إِلَّا عَلَيْنَا *** فصرنا كالفرسفة للكلاب

ومع كل هذا التجمع اليهودي الصليبي الصهيوني إلا أن سنن الله ماضية، وناموسه لا يتخلف ولا يتأجل في نصر أوليائه ومحق أعدائه. رأينا سنن الله تعالى في المنافقين، وكيف أنهم يكونون ملكيين أكثر من الملك، ولا يتخلف في هذا صاحب لحية كفور عن لئيم مأجور، حتى يصرخوا المجاهدين عن الغاية الأساسية، فيقول قائل منهم: جاهد بالسنن يا أبا عبيدة، ويقول آخر: إن الله سيسألك عن التنزه من البول ولا يسألك عن حال أهل غزة.

رأينا سنن الله تعالى فيما ينفقه الكافرون، وكيف أن هذه الأرقام الفلكية التي يسخرها الغرب الكافر ويمررها أذبال الشرق التابع تذهب هباءً أدرج الرياح، كما مضت بذلك سنن الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبِيلُ اللَّهِ تُبْذَرُ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسِيرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْبَيِّتَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْبَيِّتَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (الأنفال: 36-37).

رأينا سنن الله في التمييز بين الطيب والخبيث، التمييز بين الخبيث والطيب في كل شيء، في الرجولة والمواقف، في الأفكار والمبادئ، في القيم والمعادن، فبان الأصيل من الدخيل، والنبي من الرذيل، والجدع من الجزع، حتى يتفوق سائق شاحنة أصيل على أصحاب عمائم ولحى باعوا لحاهم وعمائمهم للدولار، تمييز في كل شيء.

رأينا سنن الله في التغيير، فتغيرت مبادئ وأفكار على ضوء ما صنع الطوفان وكشفه "ما خفي أعظم"، على مستوى شباب الجامعات في الغرب، وعلى مستوى ملاحظة لم يعرفوا الإله فإذا بهم يتعرفون قدرته ولطفه وعنايته وستره.

رأينا سنن الله في القلة والكثرة، وتأكدنا بالبصر أن القلة العاملة تهزم الكثرة النائمة، وأن الاستعداد على قدر الاستعداد، وأن الجود على قدر المعدود، وأن الجود من الموجود، وأنه (لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...) (البقرة: 286) (لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (الطلاق: 7).

رأينا سنن الله في التمكين، وهو وإن بدا اليوم تمكياً فردياً على مستوى أشخاص وأفراد إلا أن هذه أول صور التمكين الذي يعقبه التمكين الكامل بأمر الله تعالى، وعند الصباح يحمد القوم السري، كما يقول العرب.

ولا تزال سنن الله تعالى تخبرنا بالكثير، ولو وعى العرب والمسلمون هذه السنن الجارية ووظفوها في حياتهم لفتحت عليهم خيرات الأرض وبركات السماء، لأن سنن الله لا تحابي ولا تجامل.

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..."